المبحث الثالث

النشأة البلاغية لدى المتكلمين ، والمفسرين ، والفقهاء

بعد أن أرْسَلت شمسُ الإسلام أشعتها الدافئة على أرض العرب ، وغمرتها بالنور والشعور والقوة ، ونعشتْها بعد خمول ، وأخرجتها من جهالة ، وأقامت من بنائها ما هوى ، وأخذت بيدها فمضت تتقدم ولا تتأخر ، وتمضي ولا تتعثر ، وتطلب الغاية ولا تحيد ، وترشد الضال ، وتحمي الذليل ، وتعلم الجاهل ، وتمكن في الأرض لعناصر الحق والخير والجمال حتى تقوى في كل نفس ، وتنبعث في كل جنس ، وتحقق للإنسان المسلم أيًّا كان جنسه ولونه أحلامه وأمانيه في الحرية ، والعدل ، والمساواة فذلك ما تقضي بها الأخوة التي يعم بها النعيم ، فلا فضل لإنسان على آخر إلا بالعمل الصالح ، وتقوى الله التي توفر السلام في المجتمع ، والسكينة في النفس ، والرضا في القلب ، والعبودية لله - عز وجل - واستطاع بشريعته السمحة ، ومبادئه القويمة أن ينتشر في سرعة مذهلة ، وأن يفتح البلاد ، وأن يزيل الفروق ، وأن يعدل المقاييس ، وأن يؤلف بين القلوب فدخلت الأمم فيه ، ونعمت في ظله بطمأنينة العيش ، وحرية العقيدة ، والقدرة على التصرف .

هذا ومن الذائع المشهور أن الفتح الإسلامي حينما امتد وانتشر بدأ الاختلاط بين العرب وغيرهم من الفرس ، والهنود واليونان ومن الذائع المعروف أيضًا ، وعقود الزمن تتقدم ، وساحة الإسلام تمتد وتتوسع ألا تكون كل أرض قد دخلها الإسلام ، وأشعل فيها مصابيحه قد رضي كل أهلها عنه ، وأسلموا له قيادهم وقلوبهم وعقولهم . بل إن من المنطقي جدًّا أن يكون في هذه الأمم من

أسلم ولم يَمسّ الإسلام من قلبه إلا قشرة ظاهرة على السطح وهو يتخذ من الإسلام أداة لتخريبه من الداخل فما دام مسلما في الظاهر فإن إسلامه هذا سيحقق له حرية أكثر في الانطلاق والحركة داخل الجماعة المسلمة . ومن ثمّ يستطيع أن يحقق مراده في التقويض والهدم وإثارة الشبهات دون اتهام من أحد ، فالرجل يدين بالإسلام ، ولا يعارض معارضة مكشوفة تفضحه ، وتكشف أسراره خاصة ، والدولة مسلمة قوية لا تسمح لأحد بالعبث .

هذا من جانب . ومن جانب آخر فإن سماحة الإسلام جعلت ساحته تتسع لخصومه الذين صاروا يثيرون الشكوك ، ويقذفون بالشبهات ، ويرمون بالأباطيل ، ويرجفون بالمفتريات ، ويتجمعون في صف متساند ، قد رسم الخطة ، وهيّأ المسرح ، وعرف كيف يتحرك على الدرب الخادع من غير إثارة . والقصد من وراء ذلك طمس طريق الإسلام بعد أن يتجمع ضبابهم الكثيف ليحجب صفحة هذا الدين ولكن الله ـ عز وجل ـ لا يترك دينه لعبث العابثين ، واستهتار الملاحدة المستهزئين بل لابد من إظهاره ، وإعلاء كلمته ، وسد الطريق أمام المغامرين الأفاكين الذين يريدون أن ينالوا منه ، ويطفئوا نوره ، ويحجبوا سناه ، فهيّأ من يتصدّى لهذا الباطل المتخرص فيبدّد بالبرهان الساطع وبالحجة الملجمة ، وبالدليل المشرق ، وبالمنطق السديد كل زيف وكذب وزور حتى لا تقوم له بعد ذلك قيامة ، ولا يبقى له بعد ذلك وجود .

وهكذا فعند ما بدأ السحاب المتناثر يتجمع في العصر العباسي ليكوّن ركامًا من الضباب الأسود ، وعندما أدت سماحة الإسلام إلى أن يفسح مجالاً واسعًا للحرية الفكرية التي استثمرها خصومه من الملاحدة لمناهضته ، والمصاولة بالباطل لطمس أضواء الحق والتعمية على أنواره فانطلقوا آمنين ؛ لأنهم يدركون أن يدًا لن تنالهم بسُوء يحوكون الأكاذيب ، ويبعثون بالشبهات التي تجد لها مكانا مطمئنا في قلوب المرتابين المتشككين ، لذا هب علماء المسلمين لدرء الخطر ، ولِصَدّ هذا الهجوم الذي اتخذ من الفكر الضال الزائف أدوات له ووسائل تَتَرّس من خلفها ، وتدَرّع بها .

لقد حاول المشككون من مفكري الأمم التي فتحها الإسلام ولم يصادف وجوده هوًى في قلوبهم إلا أن يصدّوا عنه ، وأن ينالوا منه . وكان لابد من سبيل ييسّر لهم الوصول إلى تلك المُهمّة الدنيئة ولم يجدوا أمامهم إلا ما توهموا أنه مطاعن ومآخذ توجه إلى القرآن الكريم كتاب الإسلام الأول ، وعلى سنة رسول الله ﷺ فمضَوا جادّين في طريقهم محاولين نقض القرآن الكريم ، وتعاليم الإسلام العظيم . ورُبَّ شر وفد لك منه خير كما يقولون ؛ إذ إن وجود المشككين في الساحة ، ومحاولة الزنادقة والملاحدة إخفات صوت الدين في نفوس أصحابه ، وقطعهم بالفتن عن مشرق شمسه ، ومبعث روحه ، ومنبت عاطفته ، ومثابة أمنه ، وصرفهم عن كتابه ، وسنة رسوله كان من وراء انبعاث المسلمين ، وإيقاظهم لتعبئة قواهم وشحن قدراتهم للذود عن حياض الدين ، وبلائهم في الجهاد من أجله ليدرءوا الخطر عنه ، واقتضى ذلك منهم أن يتسلحوا بالسلاح القوي ، حتى يتمكنوا من دفع زيف الباطل بقوة الحق ، ومحق تخرصات الخصوم بيقين الصدق ، وكشف افتراءات المرجفين عن وجه الإسلام ليبقى كما كان ناصعًا لا رغوة فيه ، مشرقا لا غبار عليه ، واضحا لا شيء يحجب سناه ؛ ذلك أنه لابد للفارس الصّوال مهما أوتي من شجاعة في قلبه ، وقوة في يده ، وذكاء في عقله ، وانطلاقًا في لسانه من سلاح يغشى به الهيجاء ، ويواجه به الأعداء في ميادين القتال ، وساحة النزال .

ولم يكن السلاح المرتجى هنا إلا سلاح العلم والمعرفة ، والمنطق والفلسفة ولذا انطلق علماء المسلمين في حمية وحماس إلى هذا السلاح ، فاستعانوا بالكتاب والسنة ، ووجهوا أنظارهم شطر عقائد هؤلاء ، وتراثهم العقلي من فلسفة وعلوم يدرسون أصولها ، ويعكفون على تحصيل مادتها ، ثم يوسّعون دائرة معارفهم بالعكوف على كتب اليهود والنصارى والزرادشتية وغيرها ، واتخاذهم من كل ذلك وسائل وأدوات تسعفهم وقت الجدل والمناظرة ، والحوار ، والدفاع عن الإسلام ، وعن كتابه ، وسنة نبيه ، والتصدي

للشعوبية التي تكره العربية ، وتنتقص من قدرها ، ورميها بكل ما لا يحمد ولا يحب .

وبذلك أضحت مساجد الكوفة والبصرة وبغداد مجالس مناظرة ، ومدارس محاورة ، ومواطن مجادلة . ومواضع جدال ومنازلة وكان من منطق الواقع الذي فرض نفسه على الساحة أن يقوم حماة العقيدة ، وحرّاسُ المِلّة وجنود الإسلام بغرس وسائل الإقناع والتأثير في أذهان الناشئة من فتية الإسلام حتى تتحقق لديهم فحولة التفكير ، وليتمرسوا منذ الحداثة على بلاغة اللسان ، وعمق الفكر وإحكام المعاني ، وقوة الحجة ، وصحة الدليل ومن ثمَّ يكونون رجال جلادٍ وجدل يُفحمون بالبرهان الساطع ، ويُلجمُون بالمنطق الصائب ، ويؤثرون بالبيان الملهم المقنع ، وبالفكر الدقيق النافذ في بلاغة ظاهرة ، وصحة في القياس ، واحتفال بالمنطق . ولذا كان لابد من تدريب الناشئة على كل شيء يحقق لها الغلبة في الحديث ، والانتصار للرأي ، والفوز على الخصم ، والتأثير باللسان ، فتعلمت ألوانا من الثقافة الأجنبية على رأسها الفلسفة وما يتصل بها من المنطق بالإضافة إلى الثقافة العربية الأصلية التي تُعينهم على إتقان الردود الحاسمة ، والأجوبة القاطعة ، وإيراد الحجج الملجمة .

ولذا أتقن المتكلمون وعلى رأسهم المعتزلة فنون القول ، وألوان الحديث ، ومنازع التفكير ، وكانوا من السباقين إلى الحديث عن البلاغة العربية ، وعن مواردها العذبة . ولقد عرفوا بتمييز الفكرة ، وتحديدها ، وتحريرها ، وضبْطها ، ومناقشتها ، وتقليبها على كافة الوجوه ، وشتى الاحتمالات حتى يستوعبوا كل ما ينقسم إليه الشيء ويتفرع ، كما أعانتهم دراستهم للفلسفة على ترتيب أفكارهم ، وتدريب عقولهم على إجادة التوليد والاستنباط وإنما فعلوا ذلك لأن عدوهم لن يسلم لهم الدفاع عن القرآن والإسلام «بالقرآن والسنة» اللذين لا يصدق بهما ولا يرضى عنهما فكان من الضروري لكي يدافعوا عن الإسلام أن يتخذوا لأنفسهم منهجا عقليا يخلطوه بالفلسفة ومن هنا يمكنهم القيام بواجبهم في الدفاع عن رسالته بمناهج عقلية إلى جوار ثقافتهم الإسلامية .

على أننا يجب أن ننتبه إلى شيء له خطره هنا أن فرقة المعتزلة وهي على رأس المتكلمين حين امتصت ثقافات الأمم المجاورة ، وأدارتْها في وعْيها ووقفت على مباحثها ومذاهبها ، وطرق التفكير عندها في علوم البلاغة ومسائل البيان لم تكن تثقف نفسها بتلك الثقافات لتتمثلها ، وتعتنقها وإنما تحتفل بها لدراستها ، والموازنة بينها وبين بلاغة العرب حتى توضع لها القواعد والقوانين التي تتولد من أدبها ومن كلام أهل الطبع من أهلها . فإذا أضيف إلى ذلك أن رجالها قد نذروا حياتهم لحراسة العقيدة ، وحماية الإسلام ودَحْض ما يفتري به الخصوم تأكد لدينا أنه ليس من منطق العقل ، أن يلقي هؤلاء بأنفسهم وعقولهم في تيار البلاغة الأجنبية ليأخذوا منها من غير تحقيق ، ولا تدقيق ، ولا فحص ، ولا ملاءمة .

* * *

البلاغة عند بشر بن المعتمر

ولابد لمن يتحدث عن النشأة البلاغية عند المتكلمين أن يتوقف عند علم من أعلامهم هو بشر بن المعتمر الذي آلت إليه رئاسة المعتزلة ببغداد وكانت ثقافة المتكلمين تتمثل فيه تمثّلا صادقًا ؛ إذ كان صاحب عقلية جبارة ، وذوق نافذ ، وحجة دامغة ، وبرهان ساطع وحديثنا عنه سيكون من خلال صحيفته الذائعة في الحقل البياني وقد احتفلت بها كتب التراث ، ووضعتها في أغلى وأعز مكان مع ما احتفلت به من آثار النابهين المبرّزين فلنستمع إلى شيء منها[1].

« خذ من نفسك ساعَةَ فراغك ، وفراغ بالك ، وإجابتها إياك ، فإن قلبك في تلك الساعة أكرم جوهرا ، وأشرفُ حسًّا ، وأحسن في الأسْماع ، وأحلى في الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومُك الأطول بالكد والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاندة ، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصدا ، أو خفيفا على اللسان سهلا كما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه وإياك والتوعر فإن التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ، ويشين ألفاظك ومن أراغ معنى كريمًا فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يصونَهُما عما يُفسدهما ويُهجِّنهما ، وعما تعود من أجله أسوأ حالا منك من قبل أن تلتمس إظهارهما ...

---

(١) العمدة لابن رشيق ٢١٢/١، ٢١٣، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، دار الجيل - بيروت ـ لبنان ، والبيان والتبيين للجاحظ ٧٦/١-٧٨ ، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان .

وكن في إحدى ثلاث منازل : فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفًا وقريبا معروفا إمّا عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت ، وإمّا للعامة إن كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة . .. وإنما مدار الشرف مع الصواب ، وإحراز المنفعة ، ومع موافقة الحال ، ومع ما يجب لكل مقام من المقال ... فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك ، وبلاغة قلمك ، ولطف مداخلك ، واقتدارك في نفسك على أن تُفْهِم العامة معاني الخاصة ، وتكسوها الألفاظ المتوسطة التي لا تلطف على الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء فأنت البليغ التام . فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ... وتجد اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصل إلى قرارها ، وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تخل في مكانها ... فلا تُكْرِهْها على اغتصاب مكانها ، والنزول في غير أوطانها ... فإن أنت ابتليت بأن تتكلف القول ، وتتعاطى الصنعة ، ولم تسمح لك الطباع ؛ فلا تعجل ولا تضجر ، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك وعاوِدْه عند نشاطك ، وفراغ بالك فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت في الصناعة على عرق فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ، ومن غير طول إهمال فالمنزلة الثالثة أن تتحوّل من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك» ... «وقال ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ، ولكل حالة من ذلك مقامًا حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[1].

وتتلخص رءوس المسائل الفنية فيما طالعناه من صحيفة بشر فيما يأتي :

---

(١) البيان والتبيين ١/٧٧ .

أولاً : ينصح المنشئين من أصحاب الفن القولي ، ومتعاطي البيان أن يختاروا ساعة نشاطهم واتقاد قريحتهم ، وفراغ بالهم ، وخلو أذهانهم من المكدرات والمرهقات ، وأن يتخذوا من هذا الوقت زمنا لكتابتهم حتى يجوّدوا إنتاجهم ، ويأتوا فيه بالبليغ من القول ، والرائع من البيان فيحفظوا لأنفسهم بذلك مكانا بين المجوّدين الملهمين .

ثانيًا : يدعو إلى خفة الألفاظ ، ورشاقتها ، وجميل وقعها ، وحسن دلالتها ، وقرب معناها حين ينهى عن التوعر ، والتعقيد ، والتكليف ، والإغراء إذ إن كل هذه عيوب تصيب الفن البياني في مقتل ، وتجعله مسخا شائها ، وتحول بينه وبين أداء دوره في الإغناء والتبليغ والتأثير .

ثالثًا : تحدث عن كل من اللفظ والمعنى ، وجعلهما درجات ومنازل ، وجعل لكل نوع من تلك الأنواع ما يلائمه ويناسبه من الناس وكما جعل اللفظ والمعنى درجات جعل الناس كذلك طبقات ، وجعل لكل طبقة منها طبقة تلائمها من الكلام وعلى من أراد معنى كريما أن يلتمس له لفظا كريما .

رابعًا : ينظر إلى العمل الأدبي على أنه لفظ ومعنى ؛ ولذا فإن العلاقة بين اللفظ والمعنى عنده تقوم على الاعتدال والتوازن فليس أحدهما بأولى من الآخر ، ولذا لا يفضل واحدا منهما على صاحبه وإنما يرى أن مدار الشرف على الصواب ، مع موافقة الحال إذ إن الحال هي عمود البلاغة ونصبتها التي تحدّد ما يقال وما لا يقال تحدد اختيار الكلام المناسب للموقف المناسب فلكل مقام مقال لا يجب أن يخرج عنه أو يتجاوزه في قليل أو في كثير .

خامسًا : يحدد في كلمته من يكون البليغ ؟ ويرى أن البليغ التام المكتمل الأداة هو الذي يستطيع أن يتصرف في إبداع الكلام ، ويلوّن فيه ، ويتمكن بسبب تلك الاستطاعة من توضيح معاني الخاصة ، وتوصيلها إلى أفهام العامة في سهولة ، ويسر وبساطة ، وقدرة .

سادسًا : ينبه إلى ضرورة مطابقة الكلام لمقتضى الحال وعلى المتكلم البليغ أن يلائم بين كلامه وبين معانيه ، وبين موضوعاته ، وبين من يخصهم بحديثه .

سابعًا : ينصح الكاتب بأن يكون ذكيا في تأليف كلامه ، لبقا في اختيار روابطه وعليه إن أراد الخلود لفنه ، أن يحسن انتقاء الكلمات ، واختيارها ، وأن يجيد نظمها وتأليفها ، وأن يلائم بينها . فلا يضع لفظا في غير مكانه ، ولا تركيبا في غير موضعه حتى لا ينتثر عقد نظمه ، ويأتي مشوّها ممسوخًا .

الجاحظ

فإذا تركنا بشر بن المعتمر وذهبنا إلى رأس كبير من رءوس المعتزلة هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ الذي ولد بالبصرة وهي يومئذ مهد العلم ، ومنتدى الأدب وحاولنا أن نُحدّدَ منحاه الثقافي ، واتجاهه العلمي ونتساءل هل هو من المتكلمين ؟ أم من اللغويين ؟ أم من الأدباء والنقاد؟

لوجدنا أن هذه كلها محققة فيه على نحو بلغت الغاية في الجودة والكمال . فالرجل وبحق موسوعة ثقافية لو أراد أن يتخصّص في لوْن واحد من ألوان الفنون والعلوم ، لأعياه ذلك ولما استطاع ؛ لأنه عالم متمكن ، وفيلسوف متبحر ذو عقل مرتب ، وراوية أديب من الصعب أن تصنفّه تحت لوْن واحد من تلك الألوان إذ إنه لا يقصد إلى شعبة من شعب الثقافة حتى يبلغ فيها الغاية ، ويتبوأ فيها أعلى القمة .

وإذا كنا الآن نضعه بين المتكلمين ، ونجري معه حديثنا الآن على هذا الأساس في موضوعنا الذي نتحدث فيه فإن ذلك بسبب ما ظهر لديه من أثر للفلسفة ، والكلام ، والجدل ، والمنطق وإن كان هذا لا ينفي عنه أن الرجل أديب مطبوع قد اتبع طريقة أدبية تزاحمت فيها الأمثلة المطبوعة ، وتدافعت فيها النماذج العالية الرفيعة ، وتكاثرت فيها الشواهد المصطفاة المتخيرة على نحو تزهو به اللغة ، وتنمو الملكات ، وتتّسع المدارك ، وتتربى الأذواق .

ويلاحظ أن الرجل كان يختار نماذجه لتمثل طرائق العرب في التعابير ، ومذاهبها في التصرف في فنون الكلام . فالرجل خبير بلغة قومه ، يستشف أسرارها البلاغية ويعرف طبقاتها في مذاهب القول ، ومدى ما تتماوج به من رقة وحسن ، أو يجول في أديمها من سخف وقبح مما ينبئ عنه قوله :

« وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقبيح والسَّمجُ ، والخفيف ، والثقيل ، وكله عربي وبكل قد تكلموا ، وبكلٍّ قد تمادحوا وتعايبوا ، فإن زعم زاعم أنه لم يكن في كلامهم تفاضل ، ولا بينهم تفاوت فلم ذكروا العي والبكى ، والحصر ، والمُفحَمَ ، والخطل ، والمسهب ، والمتشدق ، والمتفيهق ... وقالوا رجل تِلِفَّاعة وتلهاعة[1] وفلان يتلهيع في خطبه ، وقالوا : فلان يخطئ في جوابه ويحيل في كلامه ، ويناقض في خبره ، ولولا أن هذه الأمور قد تكون في بعضهم دون بعض لما سمي ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء .

وأنا أقول : إنه ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذ في الأسماع ، ولا أشد اتصالا بالعقول السليمة ، ولا أفتق للسان ، ولا أجود تقويما للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء »[2].

فهذه كلمة من رجل خبير بلغة قومه يتفحص فيها فيراها تتفاوت في منازلها ، وتتباين في درجاتها كما أن الناس كذلك يختلفون في طبقاتهم ودرجاتهم ؛ إذ منها الحسن والقبيح ، ومنه الثقيل ومنها الخفيف ، ومنها الجزل ومنها السمح ، وكل هذه أوصاف لألوان من القول ، وأنماط من الأحاديث كل وصف من هذه الأوصاف يلائم شكلا من شكول الكلام ، ولونا من ألوانه ، وإذا كانت أوصاف الكلام قد عرفت على هذا النحو وتحدّدت وتميّزت فإن الوصف

---

(١) تلفاعة : كثير الكلام ، ولهع الرجل في كلامه : تشدق .

(٢) البيان والتبيين ١/٨٠ ، ٨١ .

بالتشدق ، والتفيهق ، والعي ، والحصر ، والإسهاب ، والإحالة ، والتناقض ، والتلهيع قد عرف بالنسبة للمتكلمين ، وسار جنبا إلى جنب مع ما عرف عن الكلام . وهل البلاغة إلا الكلام يصدر عن متكلم وصنعة يبدعها صانع ؟

وكتابة الجاحظ قد احْتَفَلَتْ بكثير من الإشارات البلاغية ، وإنك لتقرأ له قوله : « البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة ، وإلى ترتيب ورياضة ، وإلى تمام الآلة ، وإحكام الصنعة ، وإلى سهولة المخرج ، وجهارة النطق ، وتكميل الحروف ، وإقامة الوزن ، وأن حاجة المنطق إلى الحلاوة والطلاوة كحاجته إلى الجزالة والفخامة ، وأنَّ ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب ... وتزين به المعاني »[1] فتجد نفسك مسبوهة مدهوشة من سموّ العبقرية .

كما ترى في كلامه هذا حديثا رقراقًا عذبًا عن الحروف ومخارجها ، وأعضاء النطق ووظائفها ، وتكميل الحروف ، وحاجة المنطق إلى الحلاوة ، والفخامة والجزالة مما يتصل بفصاحة المتكلم أوثق اتصالا وأشده وإنك لتقرأ له قوله إن أكثر الحروف دورانا في اللغة العربية « الراء والياء والألف واللام »[2] .

على أنه أشار إلى أن هناك ألفاظا قد يستخفها الناس ويستعملونها وغيرها أحق بذلك وأولى منها فالله تبارك وتعالى لم يذكر لفظ الجوع إلا في موضع العقاب أو الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة وكذلك المطر فإنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا في موضع الانتقام والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث ولفظ القرآن الذي عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سماوات لم يقل الأرضين[3] .

---

(١) البيان والتبيين ٤٢/١ .

(٢) المصدر السابق ١٣/١ .

(٣) المصدر السابق ١٢/١ .

كما أن الجاحظ يبين أن من بين ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه كقول الشاعر [1].

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ وَلَيْسَ قُرْبَ قَبرِ حَرْبٍ قَبْرُ

على أنه تحدث عن اقتران الحروف وبَيّن ذلك في قوله : « فأما في افتراق الحروف فإن الجيم لا تفارق الظاء ، ولا القاف ، ولا الطاء ، ولا الغين بتقديم ولا تأخير والزاي لا تقارن الظاء ، ولا السين ، ولا الضاد ، ولا الذال بتقديم ولا تأخير وهذا باب كثير وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي إليها يجري »[2]

فإنك تلاحظ أن الجاحظ يشيد بالقران في الحروف كما يشيد بالقران في الكلمات . والقران في الحروف ضد التنافر فيها فهو يعني التوافق والتلاؤم والانسجام يعني اشتداد الحنين ، وقوة الامتزاج بين بعضها وبعض على نحو يكون للكلمة معه تناسق إيقاعي ، وتوازن نغمي ، وجمال في الأداء يحقق لها في النهاية حلاوة في السمع وطربًا في النفس ، وسهولة في النطق .

والقران كما هو محمود في الكلمة هو ممدوح في الكلام ؛ لأنه يشد الأبيات بعضها إلى بعض في قصيدة الشاعر ، ويربُط الكلمة بسابقتها ولاحقتها في بيت الشعر وفي تراكيب الكلام على نحوٍ ترى للكلمة حنينا طاغيا إلى ما بعدها وشوقا جارفا إلى ما قبلها ، وفي الشعر ترى الأبيات مشدودا بعضها إلى بعض برباط قوي هو رباط المعنى أو الموقف الذي يعبر عنه الشاعر ، ويصوغه في أبياته وبقدر ما كان القران ممدوحا فإن التفرق والتشارد والتقطع في أبيات الشاعر ثقيل معيب مبغوض ؛ ومن هنا عيب الشعر إذا كان كبعر الكبش يقع

---

(١) البيان والتبيين ٣٧/١ .

(٢) المصدر السابق ٣٩/١ .

متفرقا غير مؤتلف ولا متجاور وحين يقول أبو العاصي أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى :

وبعْضُ قَريض القوم أولاد دعَلَّةٍ   يَكُد لِسَانَ النَّاطقِ المتحفِّظِ

وحين يقول أبو العاصي أنشدني في ذلك أبو البَيْداء الرِّياحيّ :

وشِعْرٍ ، كبَعْرِ الكَبْش فَرَّق بينَه   لسان دَعِيٍّ في القريض دَخيلِ

ترى الجاحظ يشرح قول خلف حين يقول : «قولُ خلف «وبعض قريض القوم أولاد عَلّةٍ» فإنه يقول إذا كان الشعر مستكرَهًا ، وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلا لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العَلاَّت»[1].

فالرجل ممتلئ بالقران ، محتشد له ، متحمّسٌ لوجوده سواء في الكلمة الواحدة ؛ لأنه يدل على اعتدال في مزاج حروفها ، مما يعني أنها ستكون لذيذة في السمع نتيجة لتوازنها النغمي أو بين الكلمات في بيت الشعر ؛ لأنه يدل على الألفة التي تشيع بين كل كلمة وما جاورها فيبدو البيت لحنا جميلا منسّقًا لا نشوز فيه ، ولا اضطراب ، أو بين الأبيات في القصيدة الواحدة لأنه يدل على كمال الترابط ، وحسن الانسجام كما يؤكد تمام الموهبة عند الشاعر ، واكتمال أدواته الفنية ، وصدق التجربة التي يعبر شعره عنها مع صفاء ذوقه ، وسلامة طبعه .

انظر إليه يشرح ما يصنعه التنافر باللسان عند جريان الكلمات عليه من الكد والتعب والإرهاق بحيث يتعذر عليه أن ينطلق بها في سهولة ويسر فيكبو ويتعثر على عكس القران الذي تبصره في الشعر الذي تتلاحم أجزاؤه ، ويتداخل بعضه في بعض ، وتسهل مخارجه ، ويحسن وقعه في النفس والسمع فيقول :

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٧ .

« وإذا كانت الكلمةُ ليس موقعُها إلى جنْب أُختها مُرْضِيا موافقا كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤُونة . وأجودُ الشِّعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء سهل المخارج فيعلم بذلك أنه قد أفرغ إفراغًا جيدًا ، وسبك سبكا واحدًا فهو يجري على اللسان كما يجري على الدِّهان »[1] .

هذا وإشارات الجاحظ البلاغية التي وقفنا أمامها وقفة طويلة في بحثنا عن البذور البلاغية عبد ابن قتيبة ، وهناك أشرنا إلى اشتفافه للقيم الجمالية في البيان العربي على نحو ما حفل به (الحيوان والبيان والتبيين) وكان بحثنا هناك منصبا على المسائل التي وجدت عنده وكان لها صدًى عند ابن قتيبة وأذكر أنني تحدثت من بين ما تحدثت عن الإيجاز ، والإطناب ، ومراعاة مقتضى الحال والاستعارة والكناية .

وإذا كان الحديث عن النشأة البلاغية عند المتكلمين والجاحظ رأس بارز بين رءوسهم يملك من ناصية البيان ما لا يتوفر للكثير ممن جاء بعده مع قوة حجته ، وسطوع برهانه وشدة معارضته ، مما يجبر محاوره على الإذعان والتسليم على أن تبحره في علم الكلام ، وتوسّعه في دراسته لفلسفة اليونان من الذائع المشهور على أن إشادته بفئة المتكلمين ، والحديث عنها بما يرفع شأنها ، ويشرح رسالتها في أكثر من موضع مما يدلل على ما للمتكلمين عنده من درجة عالية ، وما يحِلّهم فيه من منزل كريم فهو يقول في موضع من بيانه وتبيينه يمدح المتكلمين « لأن كبار المتكلمين كانوا فوق أكثر الخطباء ، وأبلغ البلغاء »[2] .

ولقد سبق أن قلنا إن المتكلمين أهل منطق وجدل ، يجمعون إلى ثقافتهم الأجنبية إذ يستخدمون أساليب الحجاج متوسلين بأفصح الألفاظ ، وأبلغ التعابير للدفاع عن الدين ، ودرْء شبهات أعدائه ، والمفترين عليه المحاربين له .

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٦ ، ٣٧ .

(٢) الحيوان ٢/١٦ ، ١٧ .

ونختار الآن للجاحظ من دفاعه عن بلاغة القرآن ما يمثل منحى المتكلمين في دحض الشبه ، وتفنيد الافتراءات بالحجة القارعة ، وبالبرهان الساطع ، وسنرى منه ردّ الجاحظ الحاسم بما يبدِّد الشكوك ، ويزيل الشبهات مما تفهم منه من غير تحيز أن المتكلمين من أقدر من يتترَّس وراء الدين الإسلامي يدافع عنه ، وعن أساليب القرآن .

انظر إليه وهو يسقط اعتراض المعترضين في قوة حين دافع عن تشبيهات القرآن بما لا يدع زيادة المستزيد ففي قوله تعالى ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٥،١٧٦).

لقد صور الرجل في بلاغة قوية اعتراضهم الذي اعترضوا به على هذا المثل وهو أنه لا يصح أن يضرب لمن آتاه الله الآيات ثم أعرض عنها فأتبعه الشيطان إذ لا يشبه حال من أعطى شيئًا فرفضه ولم يذكر غير هذا بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولّى ذاهبا وإن تركته ظل ينبحُ عليك وشدّ في نباحه .

هذا كما أنّ اللهث لم يقعٍ في موضعه ، ولم يحل في مكانه ؛ لأنه إنما ينشأ من عطش شديد ، أو من حرٍ وتعب .

هذا هو الاعتراض كما تمثل في رءوس أصحابه فبماذا ردّ عليهم الجاحظ؟ ردَّ عليهم ردَّ المتكلم البصير الذي يعرف طريقه جيدا إلى دحض مفتريات خصمه ، وإسقاطها وتركها تتهاوى متبدِّدة تحت ضرباته القوية الفاعلة المؤثرة . فوضّح إنه إن جاز أن يقال كما يدعي المعترض إنه لا يصح أن يشبّه حال من أعطى شيئًا ثم رفضه ولم يزد على ذلك بالكلب إن حملت عليه أو تركته فهذا قد يكون لمن لم يتكرّر منه التكذيب في حين أن الحديث في الآية عمن تكرّر منهم ذلك وكأنه المشبه هنا ليس من أعطى شيئا فرفضه وإنما المشبه هنا هو

المكذِّب الذي تكرّر منه التكذيب في الوقت الذي تتابعت عليه فيه الآيات الصادقة التي لا يمكن أن ينكرها إلا من به خبل في عقله ، أو مرض في عقيدته .

إنه مكذّب بالتضعيف لكنه مكذّب معاند يرى الشمس مشرقة فينكرها مع أنها تعم الدنيا في رائعة النهار إنه لجوجٌ عنيد رافض مُلِحٌّ في الرفض مهما ظهرت أمامه الآيات واضحة مشرقة ، وقدّمت إليه الأدلة قاطعةً مفحمة . ومثل هذا الإنسان اللجوج الذي يتتابع رفضه ، ويتكرّر ، ويتوالى فلا يَقْبل بكل دليل يقدم إليه ليوجهه ويقنعه ، ولكلِّ حجة ملجمة تهديه وترشده مع طلبه لذلك ، والحرص عليه هو أشبه ما يكون بالكلب ينبح عليك إن أقدم وينبح إن أدبر إذ يعطي الجد والجهد في كل حالة من الحالات من نفسه .

والتشبيه على هذه الصورة مركب شبه فيه حال المكذّب الذي يتكرر منه التكذيب مع عدم اقتناعه بأي دليل يقدّم إليه ليوجهه ويرشده مع لجاجته في طلبه ، وإلحاحه عليه بهيئة الكلب يجدّ في النبح ويجتهد أقبل عليك أو أدبر عنك .

أو أن يشبَّه الذي أوتي الآيات والأعاجيب في بدء حرصه عليها ، وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه ، ويشبَّه الذي رفضها ، وقذف بها من بين يديه بعد طلبها ، وحرصه عليها بالكلب الذي ينبح بعد اطِّرادك له ومن الواجب أن يكون قبول الأشياء العظيمة في مثل رفضها ، والحرص عليها .

واستطاع الجاحظ بقوة منطقه ، وسداد حجته أن يبدّد الشبه الثانية التي اعترض بها المعترض وأثارها في وجه الصورة التشبيهية حين قال :

إن اللهث من الكلب في الآية لم يقع في موضعه إذ إنه لا يلهث إلا من الحر والتعب أو العطش الشديد ولم يتحقق شيء من هذا للكلب النابح حتى يلهث وكان الرد على هذا بضربة واحدة أسقطته ، وأجهزت عليه : إذ قال : «والكلب إذ أتعب نفسه في شدة النباح مقبلا عليك ، ومدبرا عنك لهث واعتراه

ما يعتريه عند التعب والعطش ثم زاد على هذه الشبهة بقوله : على أننا نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضة وادعة إلا وهي تلهث من غير أن تكون هناك إلا حرارة أجوافها ، والذي طبعت عليه من شأنها ، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللِّين»[1].

وبمثل هذا المنطق القاطع ، والرد الحاسم ردّ الجاحظ فكان في ردّه متدفقا في إقناع وإمتاع ، يقول :

«سنذكر مسألة كلامية ، وإنما نذكرها لكثرة من يعترض في هذا ممن ليس له علم بالكلام ولو كان أعلم الناس باللغة لم ينفعك في باب الدين حتى يكون عالما بالكلام وقد اعترضه معترض في قول الله عز وجل﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ (الأعراف:١٧٥،١٧٦) .

فَزَعَموا أنّ هذا المثل لا يجوزُ أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام لأنه قال ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا ﴾ فما يُشبَه حال من أُعطِيَ شيئًا فلم يقبله ولم يذكر غير ذلك بالكلب الذي إن حملت عليه نبح وولّى ذاهبًا وإن تركته شدة عليك ونبح . مع أن قوله : (يلهث) لم يقع موقعه وإنما يلهث الكلب من عطش شديد وحر شديد . ومن تعب ، وأما النُّباح والصِّياح فمن شيء آخر قلت له : إن قال : ﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ فقد يستقيم أن يكون الرادّ لا يسمّى مكذّبا ، ولا يقال كذّبوا إلا وقد كان ذلك منهم مرادا فإن لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبّه الذي أوتي الآيات والأعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليها ، وطلبه لها بالكلب في حرصه

(١) الحيوان ١/١٦ ، ١٧ .

وطلبه فإن الكلب يعطي الجد والجهد من نفسه في كلِّ حالة من الحالات وشبه رفضه وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها ، وفرط الرغبة فيها بالكلب إذا رجع ينبح بعد إطرادك له وواجب أن يكون رفض قبول الأشياء الخطيرة النّفيسة في وزن طلبها ، والحرص عليها .

والكلبُ إذا أتعب نفْسَه في شدة النباح مقبلا عليك ، ومدبرا عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعَطَش على أننا ما نرمي بأبصارنا إلى كلابنا وهي رابضة وادعة إلا وهي تلهث من غير أن تكون هناك إلا حرارةُ أجوافها ، والذي طُبعت عليه من شأنها ، إلا أن لهث الكلب يختلف بالشدة واللِّين»[1].

أرأيت إلى الجاحظ كيف تدفق في تصوير الاعتراض حتى جلاّه في صورة زاهية الألوان تسحر اللب ، وتأسر العقل بما لا يقدر صاحب الاعتراض نفسه أن يقدمه في هذه الصورة المعجبة الخالبة ؟

ثم أرأيت إلى الرجل نفسه بعد أن صور الاعتراض على حد ما هو ماثل ومختلج في نفوس وفي قرارة أعماق أصحابه بما لا يمكن لهم أن يفعلوه كيف انقض عليه بمعوله في قوة وحسْم ، وفي جيشان وتدفق وإفاضة حتى أتى عليه فإذا هو زاهق محطم بعد أن فنّده في مأخذين سلط على كل واحد منهما أشعة من نور عقله الباهر . ثم مضى في مناقشتهما والرد عليهما حتى تهاويا في سرعة ، وتساقطا في قوة ؟

وانظر إلى الرجل في مكان آخر مع القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة الصافات في قوله تعالى : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ (الصافات:٦٥).

ماذا قال الجاحظ في هذه الآية ؟ وكيف تصدى لما أثير حولها من شبهة؟ «زعم ناس أن رءوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريه ،

---

(١) الحيوان ١/١٦ ، ١٧ .

والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا : ما عنى إلا رءوس شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ، ومَرَدتهم فقال أهل الطَّعن والخلاف كيف يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ، ولا وُصفت لنا صورته في كتاب ناطق ، أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدلُّ على أن التخويف بتلك الصورة ، والتفزيع منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره فكيف يكون الشأن كذلك والناس لا يفزعون إلا من شيء هائلٍ شنيع قد عاينوه ، أو صوّره لهم صَدُوقُ اللسان ، بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ، ولا صورها لنا صادق وعلى أن أكثر الناس من هذه الأمم لم تعايش أهل الكتابين وحملة القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف ولا يتوهمون ذلك ولا يقفون عليه فكيف يكون ذلك وعيدًا عامًّا ؟

قلنا : وإن كنا نحن لم نر شيطانًا قطّ ، ولا صور رءوسها لنا صادق بيده ففي إجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين :

أحدهما : أن يقولوا لهو أقبح من الشيطان .

والوجه الآخر : أن يسمى الجميل شيطانا على جهة التَّطَيُّر له : كما تُسمَّى الكريمة شوهاء والمرأة الجميلة صمّاء ، قرناء ، وخَنْساء ، وجرباء وأشباه ذلك على جهة التطير له ففي إجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليلٌ على أنه في الحقيقة أقبحُ من كل قبيح»[1].

وفي موضع آخر يقول تعقيبا على هذه الآية : «وليس أن الناس رأوا شيطانا قط على صورته ولكن لما كان الله قد جعل لها في طباع جميع الأمم استقباح جميع صور الشياطين واستسماجه وكراهيته ، وأجرى على ألسنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالإيحاش والتنفير بالإخافة والتفزيع إلى ما قد

(١) الحيوان ٦/٤٦٠ .

جعله في طباع الأولين والآخرين وعند جميع الأمم وهذا التأويل أشبه من قول من زعم من المفسرين أن رءوس الشياطين نبات ينبت باليمن»[1].

وبهذا البيان المشرق يجلي الجاحظ التشبيه في الآية ذلك أن المشبَّه لم يُحَلْ في سبيل توضيحه وإظهاره إلى مجهول غير معلوم بقدر ما أحيل إلى معلوم مشتهر استقرت كراهيته في أعماق الأمم وفي طبائعها . وبهذا يفتح الباب واسعا للدور الذي تقوم به الصورة التشبيهية هنا في إثارة وجدان المتلقي حتى ولو كانت ذهنية إذ إنها تستعين بالخيال في استدعاء تلك الصورة القبيحة المفزعة مما يترتب على ذلك إشاعة الرعب ، وبث الخوف من تلك الشجرة المنكرة التي أبانت الصورة عن قبحها ، وعن غرابة المكان الذي خرجت فيه ﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ (الصافات:٦٤) .

وبمثل هذا المنطق يتولى المتكلمون تبديد الشبهات ، وإزالة الشكوك ولذا فإنهم قد أعدوا أنفسهم لذلك إعدادًا جيدًا من خلال طريقين :

الأول : التمكن من الفلسفة الوافدة على الفكر الإسلامي ، وقد أثبت المعتزلة أنهم أكثر قدرة من غيرهم من الطوائف الأخرى في هذا الحقل الذي يستلزم مرانا عقليا واسعا .

الثاني : التمكن من ناصية البيان ، وتذليله وتطويعه ؛ إذ إنه الأداة التي من خلالها يستطيعون محاورة خصومهم ، وإقناعهم وإسكاتهم ولابد من أجل ذلك أن يحيطوا بدروبه ، وشعابه ومسالكه إحاطة واسعة حتى يتصرفوا في فنون القول ، ومذاهب الكلام ، ويقدروا على استدعاء الألفاظ المشرقة المضيئة فتنثال عليهم انثيالا ، والتراكيب البليغة فتواتيهم في سهولة ويسر ، وطواعية حين يستنجدون بها في مواطن اللجاج ، وفي مواضع الإقناع ، وفي مواقف المحاورة والمناظرة .

---

(١) الحيوان ١٩/١ ، تحقيق فوزي عطوي .

ونحب أن نضيف شيئًا وهو أن هناك نقطتي التقاء جمعت بين علم الكلام من ناحية والبلاغة من ناحية أخرى وكان لالتقائهما عظيم الأثر ؛ إذ صار علم الكلام على رأس العلوم التي أسهمت في نمو البحث البلاغي وَاحْتَضَنَتْ ميلاده ونشأته النقطة الأولى :

قضية الإعجاز القرآني ، ولقد احتشدت من أجلها قوى ، وتناصرت طاقات ، وأفردت لها كتب ، وبذلت في سبيلها جهودٌ واحتفلت المكتبة القرآنية بتراث وافر وإذا كان قد ضاع أكثره وبقي القليل ، فإن هذا القليل يدل على علو كعبه ، وعلى رفعة مستواه .

وكان النصُّ القرآنيُّ في كل ذلك هو الميدان الذي احتشد فيه الدارسون يدْفعون ما يمكن أن يرجف به المرتابون من الأباطيل ، ويبدّدون الشبهات ، ويعصفون بكل ما يتراكم من غيوم الجهالات . وكان علماء الكلام رءوسا بارزة في إزالة الشكوك ، ومحو الظلام وظهرت كتب الإعجاز القرآني من عصارة قرائحهم لتملأ الساحة بما لا يترك مجالاً لطِعْن طاعن ، ولا لشبه شاك مرتاب . وهكذا ظل علم الكلام من خلال أعلامه الحارس اليقظ الذي يذود عن حمى الإسلام والذي يدفع كيد الكائدين عن حياضه وكان لاحتضانه قضية الإعجاز القرآني منذ نشأته الأثر الطيب الذي جعله معقد رجاء ، ومناط أمل وأفرد علماؤه كتبا خاصة من بينها : (النكت في إعجاز القرآن للرماني ، وبيان إعجاز القرآن للخطابي وإعجاز القرآن للباقلاني) وغير ذلك ويلاحظ على هذه الكتب احتشادها بمسائل البلاغة والبيان وهي بصدد الدفاع عن بلاغة القرآن إذ كان الجانب البياني هو أبرز وجوه الإعجاز ، وأدلها عليه على أن ما بها من مسائل بلاغية ظلت تنمو وتتكاثر حتى صار جُلُّ ما يؤلف من كتب حول الإعجاز القرآني من صميم البلاغة كما أنها تحفل بالمسائل الكلامية .

النقطة الثانية : من نقطتي الالتقاء بين البلاغة وعلم الكلام وقد ظهر أثرها في أن أهل الكلام أصحاب منطق ، وأهل جدل ، وقدرة على الحوار وقد

حفلت حلقات المتعلمين في مساجد الكوفة ، والبصرة ، وبغداد بناشئة المتعلمين ليتعلّموا أصول الإقناع ، والسبيل إلى دحض مفتريات الخصوم ، ولكي يتحقّق لهم الحِذقُ والمهارة ، والقدرة الكلامية والخطابية كان لابد من إدراك مسائل البيان وتحصيلها ؛ إذ إنها الروافد العذبة التي تمدّهم في وقت الحاجة بمتخيّر الألفاظ ، وروائع التراكيب .

هذا وقد ذكر الجاحظ في بيانه وتبيينه[1] عن زعيم المعتزلة واصل بن عطاء أنه كان يتجنب النطق بحرف الراء لأنه كان يعاني لُثْغة في لسانه ، لذا أسقطه في كلامه ، فلم يكن ينطق به مرة واحدة وتلك قدرةٌ كلامية لا تطاولها قدرة أخرى .

أثر كتب التفسير في البحث البلاغي

إن الحديث الفياض عن أثر علم الكلام في نشأة البحث البلاغي يأخذ بيدنا إلى الحديث الطائر السريع عن كتب التفسير التي كانت أسبق في احتضان البحث البلاغي من علم الكلام ذلك أنّ صلة علوم البلاغة بالتفسير بدأت منذ المحاولات الأولى التي بدأ بها علم التفسير بما اشتمل عليه من ملاحظات بلاغية .

وقد سبق في مكان آخر كيف ألف أبو عبيدة معمر بن المثنى كتابه مجاز القرآن على أثر سؤال وجه إليه ليحل بالإجابة عليه مشكلا بلاغيا ولقد لمعت في علوم القرآن كتب فاضت بالملاحظات البلاغية التي تكاثرت فيها تكاثراً عظيما وتمت من خلالها نموا واضحا مثل : معاني القرآن للفراء ، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، وتلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي

(١) البيان والتبيين ١/١٢ ، ١٣ .

وغير ذلك ؛ إذ إن المتعاطي لعلوم القرآن كان بلاغيا بقدر ما كان مفسرا وهذه الكتب وإن لم تتناول القرآن بالتفسير آيةً آية ، وسورة سورة على نحو المعهود عند المفسرين منذ ابن عباس ، والطبري والكشاف وغير ذلك إلا أنها ظلت تنافح عن إعجاز القرآن وتؤكده ما وسعتها الطاقة والقدرة ، وكان وجه إعجازه يقتضي التعرض لما يمكن أن يثار حول النص القرآني من اعتراضات ، لذا تناولت مجمله من جميع نواحيه اللغوية والبيانية ، وليس بخاف أن إدراك الجانب البلاغي في القرآن الكريم وتحليله يعد جانبا مهما من جوانب التفسير الذي يتدفق بها ، ويتفجر من لغة ، ونحو وصرف وكلام .

أثر علماء الأصول والفقه في الدرس البلاغي

ومع علماء الأصول والفقه نتوقف لنُشير إلى أن الفقهاء والأصوليين كان عطاؤهم في تنمية البحث البلاغي أظهر من أن يشار إليه ؛ إذ إن مهمتهم هي استنباط الأحكام وذلك إنما يكون في غالب الأمر من النص القرآني لذا أوسعوه فهما ودراسة واستنباطا وكانت جولاتهم فيه ، ونظرهم المردّد المكرّر لآياته وخصائص تراكيبه سبيلين واضحين لبيان ما فيها من حقيقة أو مجاز ودراسة العام الذي يراد به الخاص ، والخاص الذي يقصد به العام ، والعام الذي يراد به العام ، والخاص الذي يراد به الخاص ، واستغراق المفرد ، واستغراق الجمع والإطلاق والتقييد والتعريف والتنكير وهذه كلها من خصائص الدرس البلاغي ، بل هي منه في القلب والصميم .

* * *